

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

دأب كثير من المستشرقين ... على الكتابة في التراث الاسلامى بكل ما هو بعيد عن حقائقه ، وموجه ضده ، يبنى عليه ، ويبنى طمسه .

وما من شك في أن الاستشراق قام أساسا على كونه حركة موجهة تعمل من أجل تهيئة الشرق الاسلامى لتقبل التيارات التى يراد تصديرها اليه في مجالات الثقافة والدين والسياسة والاجتماع . وهى حركة ترجع جذورها الى ما يزيد عن سبعة قرون ، الا أن نشاطها في القرنين الأخيرين كان — وما زال — ملموسا .

وفي كتابات المستشرقين عن التراث الاسلامى ، نجد عجا .. فعين نحسن الظن ببعضهم قهول أن ما سطروه ينم عن جهل فاضح . وحين نسيء الظن بالبعض الآخر — ولنا العذر في ذلك — قهول أنه جهل متعمد ، يسل من أجل تشويه هذا التراث ، وقلب صورته ، والحاق الأذى به .

على أنه وجدت دائما قلة من المستشرقين اتسمت بأبحاثهم في التراث الاسلامى بالتجرد والموضوعية ، بل وكان منهم من وجد نفسه مضطرا الى قبول تعاليم الاسلام والايان بترائه الحضارى ، عن رضى وقناعة .

\*\*\*

يقول المستشرق النمساوى ليوبولد فايس (١) في كتابه « الاسلام على مفترق الطرق » وذلك في معرض حديثه عن الاستشراق والمستشرقين ، وهو واحد منهم :

(١) نسمي بهه ذلك باسم : محمد اسد

« قد لا تقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير .

الأنها حالما تتجه الى الاسلام ، يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفى فى التسرب ، حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب فى كتاباتهم عن الاسلام .. ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر ، كمالو أن الاسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث .. بل أنه متهم يقف أمام قضاة .

أن بعض المستشرقين يشلون دور المدعى العام الذى يحاول اثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع .. !

وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش فى القرون الوسطى . أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدا أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد وغير تحزب ، ولكنها كانت فى كل دعوة تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل .

ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا اليه مبدئيا ، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفى للشهود ، عبدوا الى اقتطاع أقسام من الحقيقة التى شهد بها الشهود الحاضرون ، ثم فصلوها عن المتن ، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمية ومن سوء القصد ، ومن غير أن ينسبوا قيمة ما الى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر .. أى من قبل المسلمين أنفسهم » (١) .



(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : تأليف الدكتور محمد البهى -  
الناشر مكتبة وهبه بالقاهرة - الطبعة الثامنة ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ومن أجل تحقيق الأهداف الحقيقية للاستشراق ، فقد أنشئت الجمعيات وعقدت المؤتمرات ، وأصدرت الكتب والصحف والمجلات ودوائر المعارف ، ومن أمثلة ذلك :

مجلة « العالم الاسلامى » بالانجليزية - "The Muslim World"

مجلة « العالم الاسلامى » بالفرنسية - "Le Monde Musulman"

« دائرة المعارف الاسلامية » "The Encyclopaedia Of Islam"

ثم ما كتبه عن الاسلام والعرب في دوائر المعارف الأخرى مثل :

« دائرة معارف العلوم الاجتماعية "Encyclopaedia Of social Sciences"

« دائرة معارف الدين والأخلاق » -

"Encyclopedia Of Religion and Ethics"

وتكتب هذه « الدائرة » الأخيرة عن النظرية الذرية في الاسلام فتقول :

« ان نشأة النظريات الذرية بين مفكرى الاسلام ، يحيط بها الغموض والابهام . ومن المحتمل أن تكون تلك النظريات قد وجدت طريقها الى الاسلام ، عن طريق مذهب ارسطو طاليس في الطبيعة ، وشروح الأفلاطونية الحديثة .

ونستطيع تتبع أثر هذه العقيدة الذرية مبكرا منذ القرن التاسع ( الميلادى ) فنجد أن ( ابراهيم ) النظام ( ٨٤٥ م ) يذكر كخصم لفكرة الذرة ، وأن الكندى ( ٨٧٠ م ) كتب مقالة ضد أشياءها .

ان أول صيغة معترف بها لعقيدة الذرة هي التي جاء بها أبو هاشم البصرى ( ٩٣٣ م ) ، والذي تعتبر نظريته في الواقع نظرية المعتزلة من أهل البصرة في القرن العاشر الميلادى ، وتوجد في كتاب المسائل لمؤلفه أبى رشيد سعيد بن محمد النيسابورى الذى عاش في الفترة من ٩٣٣ الى ١٠٦٨ م . وفيما يلى موجز لآرائه :

أن الذرة ( الجزء الذى لا يتجزأ ) (١) أو كما تسمى عادة المادة ( الجوهري ) تمتلك فى ذاتها ( جوهر فرد ) كخاصية تتعلق بكنهها ، امكانية ملء الفراغ ( التحيز ) .

وتعتبر المواد ذات شكل مكعبى ، وهى جميعا من نفس النوع ، ومن ثم فإن الاختلاف الحقيقى بينها ينحصر فى حقيقة أن كلا منها يشغل جزءا محددًا من الفراغ ( الحيز ) .

وعلاوة على الوجود والتحيز ، فإن كلا منها له أيضا مدى محدد ( جهة ) والذى بواسطته يمتنع على المواد الأخرى اغتصاب موضعه .

وأخيرا فإن المواد لها خاصية تقلد الحوادث ، والتي يمكن بفضلها تحديد نوعيتها ، وتحرك هذه المواد فى فراغات خالية ، وتتداخل بالضغط والتصادم . والبرهان على هذا لا يقوم على مجرد استنتاجات ولكن تؤيده التجارب البسيطة (٢) .

\* \* \*

ولما كانت مقدمة هذا الكتاب لا تصلح مكانا لمناقشة ما نقوله « دائرة معارف الدين والأخلاق » عن النظرية الذرية فى الاسلام ، الا أن هناك نقطتين تقف عندهما قليلا ، لنقول فيهما أقل ما يمكن أن يقال :

الأولى - ان رد أقوال الفلاسفة المسلمين فى الذرة الى الفلاسفة الأغرقيق ولاحقيهم ، انما هو قول يطفى الحقيقة ، ألقى به على غير أساس لعدة أسباب منها :

---

(١) الكلام الذى بين هذه الأقواس من وضع كاتب ذلك الموضوع فى « دائرة معارف الدين والأخلاق » .

(٢) Encyclopedia Of Religion and Ethics, edited by : James Hastings, 1952. (٢)

١ - قول تلك « الدائرة » : من المحتمل أن تكون تلك النظريات قد وجدت طريقها الى الاسلام عن طريق مذهب ارسطو طاليس في الطبيعة .

فهذا القول بنى على ظن وتخمين و « ان الظن لا يبنى من الحق شيئا » .

٢ - ثم هذه النتيجة التي توصل اليها المستشرق الألماني أوتو بريتنزل في بحث نشر في مجلة « الاسلام » Der Islam تحت عنوان :

مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين في الاسلام

بحث في مسألة العلاقات بين علم الكلام الأول عند أهل الاسلام وبين الفلسفة اليونانية .

ولقد قرر في نتيجة بحثه ما نصه :

« من هذا ينتج لنا أن مذهب الاسلاميين في الجوهر الفرد لا يمكن أن يعتبر مأخوذاً عن مذاهب متعددة لليونان في الجوهر الفرد » (١) .

الثانية - ان القول بأن النظرية الذرية في الاسلام يحيط بها الغموض والابهام ، انما هو قول شطط أخذ جانبا قشرياً مما قاله بعض الفلاسفة المسلمين عن الذرة ثم بنى عليه حكمه . بل أن ذلك الجانب أسىء تقديره أيضاً ، إذ أقيت عليه شبهة كونه وليداً للفلسفة الأخرقية .

ولكن ما الحيلة .. ؟

أنه الجهل بالتراث الاسلامي ، أو التجاهل المتعمد لما فيه .

ونستطيع ان نقرر بوضوح : انه لو بحث ما قيل عن الذرة في التراث الاسلامي بروح عامية لا تعرف التحامل والحيود عن الحقيقة ، لا يمكن

(١) مذهب الذرة عند المسلمين - ص ١٤١ .

اكتشاف «عالم الذرة» قبل عدة قرون من بدء اكتشافه في مطلع القرن العشرين ، كما سوف نستبينه من هذا الكتاب .

\* \* \*

هذا - ويقع هذا الكتاب في باين :

الباب الأول - وهو يعرض « النظرية الذرية الحديثة » كحقائق وتاريخ كما تستقى من تراث الاسلام والعلم الحديث .

ولئن كان قد سبقت الاشارة الى بعض ما في هذا الباب في مؤلف سابق (١) الا ان ما تجمع بعد ذلك من معلومات كان حافظا قويا لاعادة عرض الموضوع مفصلا على هذه الصورة .

الباب الثاني - وهو يناقش « التدمير الذري في القرون الاولى » - فيعرض كيف هلكت ثمود وقوم لوط واصحاب مدين ، ثم يستنتج ان ما نزل بتلك الاقوام كان كارثة ذرية .

\* \* \*

وأخيرا - تقول ما أمر الله بقوله رسول الاسلام :

« قل : ان ربي يقذف بالحق ، علام الفيوب .

قل : جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » (٢) .

أحمد عبد الوهاب

(١) كتاب : فلسطين بين الحقائق والباطل - للمؤلف .

(٢) سورة سبأ : ٤٨ - ٤٩ .